



سلسلة المناهل الاخلاقية للشباب

٩

التوبة

عَوْدَةٌ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ

بقلم

الشيخ حارث خالد حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٢٢)

هاتف: ٣٢٢٦٠٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٢

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

الكتاب: التوبة عودة الى مرضاة الله
تأليف: الشيخ حارث خالد حسين.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية في العتبة العباسية/ شعبة الدراسات والنشر.
التصميم: علاء سعيد الاسدي.
الايخراج الطباعي: محمد قاسم النصراوي.
التدقيق اللغوي: عمار كريم حسين.
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق: ٢٩٠٤ لعام ٢٠١٤ م.
المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر/ كربلاء المقدسة
الطبعة الاولى
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

ربيع الثاني ١٤٣٦هـ / شباط ٢٠١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^(١)

صدق الله العلي العظيم

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

تمهيد

الإنسان مُعَرَّضٌ دائماً للوقوع في الخطأ، ولا ينجو منه إلا من عصمه الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، وعلى المؤمن الإنتباه لأفعاله وأقواله بل حتى ما يختلج في نفسه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(٢)، فقد يسير الانسان على خطأ بلا دراية أو علم، فيرتكب محرماً أو يخالف حكماً شرعياً بجهل منه أو بتقصير، فإن تنبه لتقصيره وأحس بأنه مذنب أمام ربه فقد هُدي الى أول الطريق وهذا هو التوفيق الإلهي.

فإذا علم الانسان المؤمن التائب ما له من منزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالى فَحَرِيٌّ به أن يقوم بمكاشفة صريحة مع نفسه من أجل تصحيح الأخطاء والندم عليها، و عليه أن يجاهد مغريات الحياة ويجارها، وشهوات النفس الأمارة بالسوء كذلك، بكل طاقات قدراته النفسية والجسدية، بل بكل ما منحه الله تعالى من قوة صبر وكبح لجماح الهوى،

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) سورة المائدة: ٩٩.

وعليه أن يتساءل: كيف يمكنني الإقلاع عن ذنوبي؟ وكيف أستطيع أن أغير حالي من كوني خطاء الى تائب؟.

ولعل في الأمر من الصعوبة ما فيه، ولكن ما أعطاه الله تعالى للإنسان من إرادة وعزم، وعقل وقدرة على الاختيار، تتيح إمكانية للإنسان على التغلب على نواقصه وأخطائه فيتوب لله توبة نصوحاً فيهديه الله تعالى الى ما فيه الخير، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١). والتوبة من مختصات المؤمن، والتواب من صفاته، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «توبوا إلى الله عز وجل وادخلوا في محبته، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، والمؤمن تواب»^(٢).

وهذا الجهد المتواضع الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم، هو تبيان لبعض أهم المطالب التي على الانسان المؤمن ان ينتبه إليها عسى أن يهتدي الى سبيل الحق. ونسأل الله تعالى ان يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال وان يجعلنا من الذين يقولون القول ويتبعون أحسنه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه النبي الأمي محمد بن عبد الله وآله أهل البر والتقوى الذين جعلهم الله تعالى نوراً يستضاء بهم وسلم تسليماً كثيراً.

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٢) بحار الانوار: ٦ / ٢١.

الرحمة الإلهية

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(١)، وفي هذه الآية المباركة تبيان واضح لقبول التوبة في كونه ﷺ اتصف بالرحمانية والرحيمية وهذ الصفات مظهر من مظاهر لطفه بالعباد، فيقرب الله تعالى العبد ويدينه لكي لا يسقط في هاوية الذنوب، وخاصة منها الكبائر، فإذا استغفر العبد غفر له وإذا تاب تاب عليه، يقول تعالى وهو اصدق القائلين: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). وفي ذلك دلالة واضحة على ان الله يغفر لمن يشاء تفضلا منه، وإنه ﷺ لم يشترط التوبة بل أطلقها ويبين ذلك ما روي عن الزهراء عليها السلام أنها قالت: «إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي»^(٣)، والرواية عن الزهراء عليها السلام ليست الوحيدة التي يُصرِّح فيها ان الله تعالى يغفر الذنوب ولا يبالي، فهناك عدة روايات بهذا المعنى، ومنها ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال: «أوحى الله إلى داود النبي عليه السلام: يا داود، ان عبدي المؤمن إذا أذنب ذنبا ثم رجع وتاب من ذلك الذنب واستحى منى عند ذكره غفرت له

(١) سورة الانعام: ١٢.

(٢) سورة الزمر: ٥٣.

(٣) التبيان في تفسير القران - الطوسي: ٩ / ٣٥.

وأنسيته الحفظة وأبدلته الحسنة ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين»^(١).

وكذلك روى علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: «عندما أبى إبليس - عليه لعائن الله - ان يسجد لآدم ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢)، فقال إبليس: يا رب كيف وانت العدل الذي لا تجور فتواب عملي بطل، قال: لا ولكن اسأل من أمر الدنيا ما شئت ثوبا لعملك فأعطيتك، فأول ما سألت البقاء إلى يوم الدين. فقال الله: قد اعطيتك، قال: سلطني على ولد آدم، قال: قد سلطتك، قال: أجرني منهم مجرى الدم في العروق، قال: قد أجريتك، قال: ولا يلد لهم ولد إلا ويولد لي إثنان، قال: وأراهم ولا يروني، وأتصور لهم في كل صورة شئت، فقال: قد اعطيتك قال يا رب زدني، قال: قد جعلت لك في صدورهم أوطانا، قال: رب حسبي. فقال إبليس عند ذلك: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٣)^(٤).

ان هذا الموقف العدائي من إبليس - عليه اللعنة - لبني الانسان

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ٧٤.

(٢) سورة الحجر: ٣٤ / ٣٥.

(٣) سورة ص: ٨٢ / ٨٣.

(٤) تفسير القمي: ٥ / ١٤.

قابلة تعالى بانه وعد عباده بالرحمة التي لا حدود لها، فقد ورد في الخبر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، انه قال: «لما أعطى الله إبليس ما أعطاه من القوة، قال آدم: يا رب سلطت إبليس على ولدي، وأجريتته منهم مجرى الدم في العروق، وأعطيته ما أعطيته، فما لي ولولدي؟ قال: لك ولولئك السيئة بواحدة، والحسنة بعشر أمثالها قال: يا رب زدني، قال: التوبة مسبوطة إلى أن تبلغ النفس الحلقوم، قال: يا رب زدني، قال: أغفر ولا أبالي، قال: حسبي»^(١).

ومن جملة الأخبار والروايات الكثيرة الواردة عن أهل بيت الرحمة عليهم السلام، صار لدينا يقين أن رحمة الله بنا ولطفه تسبق عذابه، فيتوجب على المؤمنين شكر هذه النعم والشعور بالإمتنان للخالق تبارك وتعالى، وخير أنواع الشكر الإمثال للأوامر الإلهية والكف عن فعل المعاصي وخاصة الكبائر من الذنوب، فإن عمل المرء ما لا ينبغي فعله فعله بالإستغفار والتوبة وأن يخلص لله في هذه التوبة.

فوائد التوبة

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾^(١)، ان للتوبة فوائد كثيرة ليس بالاستطاعة إحصاؤها، ولكن نشير الى بعض الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة بهذا الخصوص، والآية الكريمة تبين بوضوح أن التوبة من الذنوب التي تتبع بعمل حسن صالح يكون كفارة عن الذنب فعبر القرآن الكريم بتعبير ﴿الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وجعل الله تعالى الصلاة مصداقاً لهذه الاعمال الحسنة، وروي في هذا السياق عن الامام الرضا عليه السلام، عن آباءه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٢).

ويتحقق ان العبد يخرج بالتوبة من ذنوبه بلطف من الله تعالى يبينه أمير المؤمنين عليه السلام، قائلاً: «من تاب تاب الله عليه وأمرت جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الارض أن تكتم عليه، ونسيت الحفظه ما كانت كتبت عليه»^(٣).

ومن الكرم الإلهي غير المتناهي أنه أعطي للعبد التائب خصلاً مميّزه

(١) سورة هود / ١١٤ .

(٢) وسائل الشيعة: ١٦ / ٧٥ .

(٣) وسائل الشيعة: ١٦ / ٧٤ .

بها ورفع من مقامه إكراماً لتركه المعاصي وعودته الى الله تعالى، فيروي لنا ثقة الإسلام الكليني رحمته الله في الكافي، قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَعْطَى التَّائِبِينَ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَوْ أُعْطِيَ خِصْلَةٌ مِنْهَا جَمِيعَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَجَّوْا بِهَا قَوْلَهُ ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(١)، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ لَمْ يَعْذِبْهُ؛ وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢)، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣)». ^(٤)

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٢) سورة غافر: ٧-٨-٩.

(٣) سورة الفرقان: ٦٨-٦٩.

(٤) الكافي: ٢ / ٥٩٧.

فإذا اذنب العبد ثم تاب فأتى بتوبته على أكمل وجه، بأن تكون توبته ماحية لآثار الذنوب من قلبه بالكلية وذلك بإذابة نفسه بالندم والحسرات وأنار ذلك القلب بنور الحسنات، وعده بحب منه تعالى وهذا مقام عال جداً، يتمناه كل عبد مؤمن. فقد روي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»^(١).

فبالتوبة محبة الله، وفيها الندم على الذنوب، وأن العبد يعيد ما عليه من عبادة حتى يتم ما في ذمته، وفيها ترد المظالم إلى أصحابها، وفيها فض الخصام والإستحلال من الخصوم.

وذكر الشريف الرضي (عليه السلام) في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، أنه قال: «ان رجلاً قال بحضور أمير المؤمنين (عليه السلام) «أستغفر الله»، فقال (عليه السلام): ثكلتك أمك، أتدرى ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث ان تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله املس ليس عليك تبعة، والرابع ان

تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدّي حقّها، والخامس ان تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد، و السادس ان تذيب الجسم ألم الطّاعة كما اذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله»^(١).

النبي ﷺ و أهل بيته عليهم السلام واسطة للمغفرة

إنّ الله سبحانه وتعالى ترك باب التوبة والإجابة مفتوحاً للمذنبين، و للذين يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، فيقول تبارك و تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٢)

والجدير بالتأمل أنّ القرآن الكريم عبّر بقوله تعالى: ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ للدلالة على انهم عصوا وارتكبوا المحرمات وهذه الإشارة الواضحة تفيد ان الطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ تكون فائدتها للفرد وللمجتمع على حد سواء، وإن العصيان وارتكاب المعاصي ظلم للأنفس و للمجتمع بجميع أفراده؛ لأنّ الذنوب مؤذية للإنسان و لحياته، وتوجب العقاب الذي قد يكون في الدنيا أو في الآخرة.

(١) منهاج البراعة: ٢ / ٥٥.

(٢) سورة النساء: ٦٤.

وهذه الآية هي إجابة واضحة للذين لا يفهمون معنى التوسل برسول الله ﷺ، أو بالإمام المعصوم ﷺ الذي خلفه الرسول الأكرم ﷺ ويعتبرونه نوعاً من الشرك، فهذه الآية الكريمة صريحة في موضوع مشروعية التوسل بالنبي الأكرم ﷺ والاستشفاع به الى الله تعالى، وطلب الإستغفار بشفاعته النبي ﷺ يؤدي الى المغفرة من الله تعالى، وهي مفتاح الشمول بالرحمة الإلهية.

فلو كانت وساطة النبي الخاتم ﷺ ودعاؤه لمن تورط بالذنب، بالتوسل به ﷺ وطلبه من الله تعالى الغفران للمذنبين شركاً، فكيف يمكن أن يحث القرآن الكريم العصاة والمذنبين بالاستغفار برسول الله ﷺ والتشفع به ؟

نعم، نفهم أن المذنب عليه اولاً التوبة والابتعاد عن المعاصي، ثم يتوجهوا الى استغفار والتشفع بالنبي الخاتم ﷺ وبآله الطاهرين ﷺ. فلا يمكن ان يتشفع المصّر على الذنوب بهم قبل ان يترك الذنوب والمعاصي، يقول الامام الصادق ﷺ: «عليك بتقوى الله والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الامانة وحسن الخلق وحسن الجوار وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زينا ولا تكونوا شينا، وعليكم بطول الركوع والسجود، فإن أحدكم إذا طال الركوع والسجود

هتف إبليس من خلفه وقال: يا ويله أطاع وعصيت وسجد وأبيت»^(١).

إن هذا الموضوع (أي تأثير استغفار النبي ﷺ للمؤمنين) ورد في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾^(٢). أما أهل الكفر والنفاق فيستكبرون عن الاستغفار ولا يتوبون من ذنوبهم، فيقول تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصَدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣).

وذكر القرآن الكريم أن الأنبياء ﷺ كانوا يستغفرون الله للناس وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٤)، وأيضا على لسان إبراهيم ﷺ، قال تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾^(٥).

وكان الأئمة المعصومون ﷺ أيضا سببا لهداية كثير من

(١) الكافي: ٢ / ١١٧.

(٢) سورة محمد ﷺ: ١٩.

(٣) سورة المنافقون: ٥.

(٤) سورة التوبة: ١١٤.

(٥) سورة مريم: ٤٧.

الآثمين ومن غرق في الذنوب، فكانوا حقاً سفينة النجاة، ورد هذا المعنى في حديث عن النبي الأكرم ﷺ، يرويه الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضى الله عنه، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من دخلها نجا، و من تخلف عنها هلك»^(١).

ولا نستطيع ان نحصي من تاب على أيديهم المباركة، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر قصة مرور الامام الكاظم عليه السلام من أمام بيت أحد الذين تابوا من ذنوبهم و عصيانهم، فعلى يده عليه السلام الشريفة تاب (بشر الحافي).

ذكر (أن الامام عليه السلام إجتاز على دار بشر ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجت جارية ويدها قمامة البقل، فرمت بها في الدرب: فقال لها: يا جارية! صاحب هذه الدار حر أم عبدا؟ فقالت: بل حر فقال عليه السلام: صدقت، لو كان عبدا خاف من مولاه!. فلما دخلت قال مولاه وهو على مائدة السكر: ما أبطأك علينا؟ فقالت: حدثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافيا حتى لقي مولانا الكاظم عليه السلام فتاب على يده)^(٢). فكان الامام عليه السلام الهادي الذي هداه الى طريق الحق، فصار عبداً صالحاً بعد ذلك العصيان واقتراف الذنوب. لكن هذه التوبة من بشر لم تكن وليدة الصدفة، فقد قدم

(١) الامالي للطوسي: ٢ / ٨٩.

(٢) منهاج الكرامة في معرفة الامامة: ٦ / ٢.

لها مقدمة مهدت له الهدية على يد الامام الكاظم عليه السلام، فيذكر أنه قبل هذه الحادثة كان قد وجد ورقة كتب عليها شيء من القرآن مرمية على الارض في شارع من شوارع بغداد فأخذها واشترى بدرهمين كمية من العطر فعطرها ووضع الورقة في ثقب حائط.

فرأى في المنام قائلاً يقول له: سنجعلك محترماً عند الناس لاحترامك القرآن، فاتفق بعد ذلك أن رأى الامام موسى بن جعفر عليه السلام في القصة المذكورة. فتاب على يده المباركة وصار علماً من الزهاد، وقبره إلى الآن مزار يزوره الناس.

وليس الأمر محصور بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فالملائكة يطلبون المغفرة من الله تعالى للناس ايضاً، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٢)

وهذا يبين بوضوح أن آيات القرآن الكريم تكشف أن الأنبياء

(١) سورة الشورى: ٥.

(٢) سورة غافر: ٧.

أو الملائكة، أو المؤمنين الصادقين بإمكانهم أن يستغفروا لمن أذنب من الناس، وإن استغفارهم له قيمة عند الله تعالى. فان الأنبياء ﷺ أرسلوا لكي يهتدي بهم الناس الى الصراط المستقيم وخصوصاً النبي الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ فهو مبعوث رحمة للعالمين وهو صاحب الخلق العظيم، و الرواية التالية كاشفة عن رأفته ﷺ بالناس، فقد روي عن جابر، عن أبي جعفر الباقر ﷺ: «أن رسول الله ﷺ دعا رجلا من اليهود وهو في السياق إلى الاقرار بالشهادتين فأقر بهما ومات، فأمر الصحابة أن يغسلوه ويكفنوه ثم صلى عليه، وقال: الحمد لله الذي أنجى بي اليوم نسمة من النار»^(١). ونأمل من الله العزيز القدير أن ينجيننا بالرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين المطهرين ﷺ من كل شر، وأن نكون ممن استغفر لهم الرسول ﷺ لتتوب الى الله تبارك وتعالى من كل ذنب، فإنه أرحم الراحمين.

التوبة النصوح

(النصح هو تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، و يأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود، أي أخلصته فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود إلى المعصية أو ما يخلص العبد للرجوع عن

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ٨٨.

الذنب فلا يرجع إلى ما تاب منه^(١).

وخلاصة القول أن التوبة النصوح تعني التوبة الخالصة التي لا يعود العبد بعدها لنفس الذنب الذي إقترفه، فقد ورد أن أبا الصباح الكناني قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾^(٢)، قال عليه السلام: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه»^(٣).

وفي رواية أخرى عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، قال عليه السلام: هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً، قلت: وأينا لم يعد؟، فقال عليه السلام: يا أبا محمد إن الله يحب من عباده المُفْتَنَ التَّوَابَ»^(٤).

ويستفاد من رواية أبي بصير، أن التوبة التي توصف بأنها (نصوح) لا تعصم صاحبها من الخطأ وارتكاب الذنوب، حيث ان هذا خلاف طبيعتنا البشرية التي تكون فيها ملازمة بين الخير والشر، فالتائب توبة نصوح قد يقع بعدها بأخطاء وذنوب.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٩ / ١٨٦ .

(٢) سورة التحريم: ٨.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦ / ٧٢ .

(٤) وسائل الشيعة: ١٦ / ٨٠ .

وإن غاية المطلب، أن هذا النوع من التوبة هو من أفضل أنواع التوبة، وانها تتقدم بصاحبها نحو طريق يؤدي الى الانابة الصادقة لرب السموات والأرض جلّ وعلا، فيتصف صاحبها بصفات جيدة وجديدة منها سرعة عودته اذا ضلّ ويكون قريباً من الله تعالى حتى ورد في الأخبار أن الله يحب هذا العبد، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام، انه قال: «أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله»^(١).

ونصوح على وزن فعول وتفيد هذه الصيغة المبالغة، وتقع على المذكر والمؤنث، فنقول مثلاً: رجل أكل وامرأة أكل، أي هذا الرجل وهذه المرأة يأكلان كثيراً من الطعام، فيكون لفظ نصوح بمعنى أن الانسان يبالي في نصح نفسه بأن لا يعود الى ذلك الذنب.

وقد ذكر المفسرون مثل هذا المعنى في تفاسيرهم فقالوا أن في معنى التوبة النصوح وجوها منها أن المراد من التوبة النصوح (هي التي تنصح الناس أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها لظهور آثارها الجميلة في صاحبها أو تنصح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثم لا يعود إليها أبداً)^(٢)

(١) الكافي: ٢ / ٥٩٤.

(٢) بحار الانوار: ٨٣ / ١٤٥.

الحث على التوبة النصوح

تبين مما سبق أن التوبة النصوح تختلف عن غيرها من أنواع التوبة، فليس المراد بالتوبة النصوح مجرد الندم على فعل الذنب ولا تكتفي هذه التوبة بالاستغفار بل تشترط عزم ونية خالصة بعدم العودة الى هذا الذنب بل هجران للذنوب، وقلنا أن هذا لا يعني العصمة (وليس كلامنا حول المعصومين عليهم السلام)، بل القصد أنها تترك أثراً في سلوك الانسان وتأثيراً واضحاً على الصعيد النفسي والتطبيقي.

وبينت السنة المطهرة ما للتوبة من تأثير واضح على صعيد السلوك الشخصي، فقد روي أنه قد خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم الجمعة، فقال صلى الله عليه وآله: «أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا، وأصلحوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانتهوا عن المنكر تنصروا، يا أيها الناس إن أكيسكم أكثركم ذكراً للموت وإن أحزمكم أحسنكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»^(١).

هذا على الصعيد الدنيوي أما على صعيد الثواب والعقاب في

(١) بحار الانوار: ٧٤ / ١٧٦ .

الآخرة، فقد روى الشيخ الكليني رحمته الله في الكافي عن معاوية بن وهب قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام، يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، قلت: وكيف يستر عليه؟، قال عليه السلام: يُنسي ملكيه ما كتب عليه من الذنوب، ويوحى إلى جوارحه أكتمي عليه ذنوبه، ويوحى إلى بقاع الارض أكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»^(١).

ومن هذا وذاك نعرف أهمية التوبة النصوح في العلاج الناجع لكل الذنوب، وهي طريق آمن يؤدي بسالكه الى السعادة الأبدية.

فالتائب توبة نصوح هو المؤمن التقي المواظب على الطاعات، إلا انه أخطأ في ساعة غفلة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾^(٢). فإذا مرت عليه ساعة غفلة أوقعه الشيطان في معصية تراه يرجع بسرعة الى ربه معتذراً مستغفراً تائباً.

(١) الكافي: ١٦ / ٧١.

(٢) سورة النساء: ١٧.

الإعتراف بالذنب

روى ثقة الإسلام الكليني في كتابه الكافي، عن بعض اصحاب الامام الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول: «إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة، قلت: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال عليه السلام: نعم إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة»^(١).

لو استنتقنا هذا النص المبارك، لتبين لنا وبسهولة ان الندم الذي يجب ان يسبق التوبة ويمهد لها هو ايضاً بحاجة الى تمهيد ليكون أهلاً لقبول الندم ومن ثمَّ التوبة، وهذه المرحلة المهمة في هذا السياق هي مرحلة الاقرار والاعتراف بالذنب، وفيها يكون الصراع على اشده بين العصيان ولذات الدنيا الزائلة، وبين المغفرة والعودة الى الله تعالى.

وتبين الرواية المذكورة الصفات التي تطرأ على المذنب في هذه المرحلة أهمها الخوف من الله، فهو يعلم ان الله رقيب، وانه سيحاسب على ذنبه المفتضح امام الله تعالى، وحسابه سيؤدي به الى عقوبة إلهية، وهاجس الخوف هذا يجسه في دائرة ضيقة من الخيارات لا تتسع إلا للإقرار بأنه اذنب وان نفسه الأمانة سولت له العصيان، ولا فرق في كون ذنبه من الكبائر أو غيرها من التصانيف، فإن الذنوب كلها كبائر،

(١) الكافي: ٢ / ٥٨٨.

وهذه وصية النبي الاكرم ﷺ لأبي ذر حين قال: «... يا أبا ذر، لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت...»^(١).

ويُفهم من هذا ان الإقرار والاعتراف بالذنب مقدمة للخروج من الذنب، لقول الامام الصادق عليه السلام: «إنه والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار وما خرج عبد من ذنب إلا بإقرار»^(٢). ونذكر حديثاً دلالتة أكثر وضوحاً، حيث ذكر صاحب الوسائل عليه السلام عن ثقة الاسلام الكليني عليه السلام، في رواية: ابن أبي عمير، عن علي الأحمسي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، أنه قال: «والله ما ينجو من الذنب إلا من أقر به»^(٣). وكذلك ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، انه قال: «لا والله ما أراد الله من الناس إلا خصلتين: أن يقرؤا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم»^(٤).

فإذا تورط العبد بذنوب، أستوجب عليه أولاً أن يقر لمولاه بذنبه فوراً فيندم على فعله، ويحاسب نفسه ويؤنبها ويهذبها من مثل هذه المعاصي، ثم يستغفر الله تعالى ويطلب منه العفو، يتوب الى الله فلا يعود الى ذنبه، عسى الله ان يسامحه ويتوب عليه.

(١) الأملاني للطوسي: ٢ / ١٠٤ .

(٢) وسائل الشيعة: ١٦ / ٥٩ .

(٣) وسائل الشيعة: ١٦ / ٥٩ .

(٤) وسائل الشيعة: ١٦ / ٥٩ .

الساعات السبع

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

إن قبول الله سبحانه وتعالى توبة المذنبين العاصين من عباده مظهر من مظاهر لطف المولى وكرمه، ونرى تجلي اللطف الالهي واضحاً في كل ما يقرب العبد من مولاه فلا يسُد أبواب الرحمة والتوبة والإنابة بوجه عبده، تلطفاً منه سبحانه بعباده الضعفاء فلا يكلفهم ما لا يطيقون، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وفي نفس الآية الكريمة يُعلِّم المؤمنين الفاظ الدعاء بذلك، يقول تعالى من قائل: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾^(٢).

ومن لطفه تعالى بعباده، أن المذنب يعطى فرصة ليعود لربه ويتوب من ذنبه ويستغفر قبل أن يكتب عليه ذلك الذنب. فيروى عن زرارة أنه قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إن العبد إذا أذنب ذنباً أُجِّل من غدوة إلى الليل فإن استغفر الله لم يكتب عليه»^(٣). هذه الفرصة

(١) سورة النساء: ١١٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) الكافي: ٢ / ٦٠٢.

تركها الله للعبد لكي يراجع فيها نفسه ويعدل عن ذنبه الى التوبة، فيقابله الله برحمة منه وقبول للتوبة، وقد ورد في رواية عن أبي عبد الله الصادق تعيين مدة من الوقت لقبول توبة وإستغفار العبد المذنب، وفي هذه الرواية يذكر الامام الصادق عليه السلام لفظاً للإستغفار يكرره العبد ثلاث مرات، والرواية تفيد من حيث قبول التوبة نفس المعنى الذي تعلمناه من الرواية السابقة، قال عليه السلام: «من عمل سيئة أُجِّل فيها سبع ساعات من النهار فإن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ثلاث مرات لم تكتب عليه»^(١)، وهذه الرواية لا تكشف عن الذي عمل السيئة، هل هو مؤمن أم غير مؤمن، والإجابة في روايات أخرى عن الامام الصادق تحمل نفس المعنى، ولكن الرواية التالية تبين بوضوح شرط (الأيمان) بالعبد المذنب، وهي ينقلها صاحب الوسائل، عن علي بن مهزيار، عن النضر بن سويد، عن عبدالله بن سنان، عن حفص، قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ما من مؤمن يذنب ذنباً إلا أجَّله الله سبع ساعات من النهار، فإن هو تاب لم يكتب عليه شيء، وإن هو لم يفعل كُتِبَ عليه سيئة، فأتاه عباد البصري فقال له: بلغنا أنك قلت: ما من عبد يذنب ذنباً الا أجَّله الله سبع ساعات من النهار، فقال عليه السلام: ليس هكذا قلت،

ولكني قلت: ما من مؤمن وكذلك كان قولي»^(١).

وجعل الله للمؤمنين من الناس مقاماً آخر في هذا الباب، فأن المؤمن يعرف ذنبه ولا ينساه، مما يتيح له فرصة التعبد بطلب المغفرة والندم على فعل الذنوب بالدعاء و طلب العفو من المولى تبارك وتعالى، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: «العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له وإن الكافر لينساه من ساعته»^(٢). وهذا أيضاً من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين

وقت لا تنفع فيه التوبة

ذكر الشريف الرضي عليه السلام في نهج البلاغة في خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام، قال: «فاعملوا وأنتم في نفس البقاء والصحف منشورة، والتوبة مبسوطة. والمدبر يدعى، والمسيء يرجى. قبل أن يحمد العمل، وينقطع المهل، وينقضي الاجل، ويسد باب التوبة وتصعد الملائكة»^(٣).

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ٦٥.

(٢) الكافي: ٢ / ٦٠٣.

(٣) نهج البلاغة - محمد عبده: ٢ / ١٧١.

وهذا الكلام الدقيق في معانيه واللطيف في عبائه قاله سيد البلغاء مفسراً لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤)

وذكر ثقة الاسلام الشيخ الكليني رحمته الله رواية عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أو عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث: «إن الله عز وجل قال لآدم عليه السلام: جعلت لك أن من عمل من ذريتك سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لهم التوبة أو بسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا رب حسبي»^(٥).

ونفهم من هذا الآية المباركة ومن كلام الأئمة عليهم السلام أن هنالك نهاية لطريق التوبة ومحطتها الاخيرة حين تنكشف له الحياة الاخرى ساعة الموت. فإن تاب الانسان تاب الله عليه وان لم يتب حمل وزر نفسه على عاتقه. والذي يستثمر عامل الحياة قد يكون من اسعد الناس حظاً. فقد روي ان رجلاً شيخاً كان من المخالفين عرض عليه ابن أخيه الولاية عند موته فأقر بها وشهق ومات، قال: «فدخلنا على أبي عبدالله عليه السلام فعرض علي بن السري هذا الكلام على أبي عبدالله الصادق، فقال عليه السلام: هو

(٤) سورة النساء: ١٨.

(٥) وسائل الشيعة: ١٦ / ٨٨.

رجل من أهل الجنة، قال له علي بن السري، إنه لم يعرف شيئاً من هذا غير ساعته تلك، قال عليه السلام: «فتريدون منه ماذا؟ قد والله دخل الجنة»^(١).

وأي حُسنُ خاتمة أفضل من هذه؟، وقد هيأت التوبة للإنسان مكانة مهمة فيحصل فيها التائب على خير الدنيا والآخرة.

فإن تأخر العبد حتى تنكشف له الحياة الأخرى فلا ينفع حينها توبة ولا اعتراف ولا إقرار بالذنب. وقد بين القرآن الكريم ذلك في قصة غرق الطاغية فرعون، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢). لكن هيئات ان تقبل من الذين كفروا توبة وقد طغوا طيلة حياتهم فاذا رأوا بأمر أعينهم ان هناك حياة أخرى وقد كذبوا بها وأنكروها، قالوا آمنا الآن، فأغفر يا رب لنا كفرنا وعصياننا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾^(٣).

فباب التوبة مفتوح ما لم يصل الانسان الى لحظات موته، فعليه ان يستثمر حياته في الرجوع الى مولاه والتوبة و الاستغفار، فقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، انه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تاب قبل موته

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ٨٨.

(٢) سورة يونس: ٩٠.

(٣) سورة غافر: ٨٤.

بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: إن الشهر لكثير، ثم قال: من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال: وإن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»^(١).

الجهاد الأكبر

الانسان مأمور من قبل خالقه على الالتزام بجادة الهداية فيجب عليه ان لا يعصي الله بفعل او بقول مما لا تقبله الشريعة، فأن ارتكب المعاصي عليه ان يغير واقعه المنحرف ويترتب عليه إصلاح ذاته ويطهر نفسه من ظلمات المعاصي المهلكة، خاصة اذا كان يعلم انه يقوم بأفعال محرمة فيوجب على نفسه العقاب.

فإن نَزَّه الانسان المذنب نفسه وعاد الى رشده وتاب، دخل في معركة الجهاد الأكبر أي جهاد النفس فقد روي عن النبي الخاتم ﷺ في خبر يرويه لنا الامام الصادق عليه السلام: «أن النبي ﷺ بعث سرية فلما رجعوا، قال ﷺ: مرحبا بقوم قضوا الجهاد الاصغر وبقي عليهم الجهاد الاكبر، فقيل: يا رسول الله ما الجهاد الاكبر؟ قال ﷺ: جهاد النفس»^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ٨٨.

(٢) وسائل الشيعة: ١٥ / ١٦١.

فعلى الانسان المؤمن ان يجاهد في سبيل تهذيب سلوكه و خلقه و عليه أن يُفَعِّلَ عمل ضميره ومرتكزاته الدينية الاخلاقية، وجاهد نفسه الأثارة بالسوء، حتى يُؤمَنَ عليه من الوقوع في المعاصي وكي لا تصبح نفسه الامارة بالسوء حاكمة عليه.

قال الامام الصادق عليه السلام: «من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه»^(١). فإن اقترف الذنوب سار العبد الى الندامة حيث لا جدوى من الندم بعد فوات الأوان، فالذنوب توجب العقاب لمن تعمد لها بعد علمه بحرمتها. روى القتال النيسابوري خبراً عن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله انه قال: «ان العبد ليجلس على ذنب من ذنوبه مائة عام وانه لينظر إلى ازواجه، واخوانه في الجنة»^(٢).

فمن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قدّم فيه رتبة جهاد النفس على جهاد الاعداء نتعلم درس كبير لجميع الأحرار الذين يريدون أن ينتصروا على عدوّهم الخطر في ميادين جهاد النفس.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح: «وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان، فقد وكلني خذلانك إلى حيث

(١) نفس المصدر.

(٢) روضة الواعظين: ١ / ٤٩٣.

النصب والحرمان»^(١).

فالواجب ان لا يسوّف العبد ويؤخر في توبته، بل عليه أن يستعجل التوبة ويحارب بكل ما أوتي من قوة وساوس الشيطان الرجيم، و عليه أن يقدّم الاعتذار والاستغفار لله تعالى لما بدر منه، والأهم ان يبنّي حصناً من الإرادة على ألا يعود الى ارتكاب هذه الذنوب ويتوب لله تعالى توبة نصوحة.

لماذا يُخلد أهل النار وأهل الجنة في الجنة؟

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما خلد أهل النار في النار لان نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لان نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيات خُلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾^(٢)، قال عليه السلام: «على نيته»^(٣).

ونفهم من هذا الحديث المبارك ان الانسان الذي يتوب من ذنبه ولا يصر عليه يتوب الله عليه ويرشده الى ما فيهه صلاح العبد فلا يعود الى

(١) بحار الانوار: ٨٤ / ٣٤٠.

(٢) سورة الاسراء: ٨٤.

(٣) الكافي: ٢ / ١٢٩.

ارتكاب مثل هذه الذنوب والأهم انه ليس مصرّاً على الذنب والمعصية. فتكون توبته هذه توبة نصوحة خالصة لله تعالى، فتؤهله للعودة الى سابق عهده قبل ان يذنب مع حافظ قوي على السير على خطى الشريعة فيربي نفسه ويؤديها وينزهها عن التعمد في ارتكاب المعصية.

وبالعكس تماماً هنالك من يُصر على الذنوب ولا تكون لديه نية للعودة عن معصيته لخالقه تبارك وتعالى، فتفسد نفسه ويصيبه الطغيان، فما تعود له بصيرة ترشده الى طريق التوبة وإصلاح النفس، وقد قص علينا القرآن العديد من نماذج هؤلاء الطغاة امثال فرعون ونمرود، وهنالك اقوام شحت نفوسهم عن الرجوع الى الله تعالى امثال ثمود وعاد وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم الكثير فأستحقوا العذاب والخلود في نار جهنم.

وطريق النجاة سهلٌ، لا يحتاج من العبد إلا أن يقوم بإنتفاضة على عاداته السيئة، ويلتزم بما أمرته الشريعة السمحاء، فيغير ما بنفسه فيتغير كل السوء، ولا يصر على الذنب فينقلب حاله من مستحق الخلود في النار الى حال آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(١).

(١) سورة الرعد: ١١.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾، قانون ارتكز عليه المجتمع الاسلامي، وهذا القانون يحث للتفكير على ثورة إيمانية وأخلاقية في داخل النفس المؤمنة، فإذا وقعنا في معصية يجب أن نبحث فوراً عن نقاط الضعف فينا، ونظهر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلى الله، ونبدأ حياة جديدة مفعمة بنور الايمان، كي نستطيع ان نغير حياتنا الى ما هو أفضل، فيثبت الأمل في المغفرة والرحمة الالهية.

الإستغفار حالة إيمانية

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١). اذا تورط الإنسان بفعل ما يندم عليه من اعمال سيئة فلا يعني ذلك أن فعله هذا انتهى واصبح من الماضي، فيعتقد المكلف ان لا عودة لفعله. بل بالعكس تماماً حيث يترتب على المذنبين العودة الى حيث انتهوا ليصلحوا ما قد افسدوا بفعلهم الذنوب، ثم هنالك مرحلة ثانية فيتوبوا و يندموا فلا يعودوا ابداً الى هذه الافعال، ثم هنالك واجب آخر فيطلبوا المغفرة من الله تعالى، فاذا فعلوا كل ذلك فالآية الكريمة تبشر من يعمل سوء بمغفرة من الله تعالى.

وأفضل وقت للاستغفار هو وقت السحر، حين يكون العبد قد

(١) سورة النساء: ١١٠.

انفرد عن الناس في جوف الليل، حيث صفاء النفس في هذا وقت المحبب للعبادة ولذكر الله تعالى، وهو وقت مناجاة ودعاء، فيروي لنا الشيخ الصدوق رحمته الله في كتابه (علل الشرايع) عن الإمام موسى بن جعفر رحمته الله عن أبيه عن أمير المؤمنين رحمته الله قال: «ان الله تعالى إذا أراد أن يصيب أهل الارض بعذاب، قال: لولا الذين يتحابون بجلالي ويعمرون مساجدي ويستغفرون بالأسحار لأنزلت عذابي»^(١).

وفي نكتة لطيفة يجب الاشارة لها، إن قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾^(٢)، وفي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٣)، وغيرها من الآيات في هذا السياق والمعنى يكون المخاطب هنا هو رسول الله صلوات الله عليه وفعل الاستغفار صادر منه، ولكن استغفاره وتوبته ليس لذنوبه ولا لارتكابه سيئة - حاشاه -، فإنه صلوات الله عليه معصوم بل هو أفضل المعصومين بلا فصل، إنما استغفاره لفعلنا الذنوب والمعاصي ولذلك قال تعالى في ذيل الآية المباركة ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

يُروى ان عمر بن يزيد بياع السابري، قال: «قلت لابي عبدالله

(١) علل الشرايع: ٢ / ٣٤١..

(٢) سورة غافر: ٥٥.

(٣) سورة محمد صلوات الله عليه: ١٩.

الصادق عليه السلام قول الله في كتابه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١)، قال عليه السلام: ما كان له من ذنب ولا هم بذنب ولكن الله حمّله ذنوب شيعته ثم غفرها له^(٢).

وكان النبي الأكرم عليه السلام يستغفر الله كثيراً مما يدل على أن الاستغفار أمر عبادي، فيتعبد به رسول الله عليه السلام، والمروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام دال بوضوح على استحباب الاستغفار، قال عليه السلام: «قال رسول الله عليه السلام: الاستغفار وقول لا إله إلا الله خير العبادة، قال الله العزيز الجبار: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾»^(٣)

وفي رواية عن الحارث بن المغيرة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «كان رسول الله عليه السلام يستغفر الله عليه السلام كل يوم أو غداة كل يوم سبعين مرة، ويتوب إلى الله عز وجل سبعين مرة، قال: قلت: كان يقول أستغفر الله وأتوب إليه؟، قال: كان يقول أستغفر الله، أستغفر الله سبعين مرة، ويقول: وأتوب إلى الله وأتوب إلى الله سبعين مرة»^(٤).

(١) سورة الفتح: ٢.

(٢) تفسير القمي: ٥٧ / ٧، وبحار الانوار: ١٧ / ٧٦.

(٣) وسائل الشيعة: ٧ / ١٨٠.

(٤) الكافي: ٢ / ٦٩١.

ماذا بعد التوبة؟

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اِرْزَأُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(١). تبين هذه الآية الشريفة ان هناك شروطاً وقواعد يجب ان يتبعها التائب ليقبل الله تعالى توبته؛ فاذا تاب من ذنب عليه ان لا يعود إلى ذلك الذنب ابداً فاذا عاد كان من المزدادين كفراً فحق عليه العذاب يقول الامام الرضا عليه السلام: «المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه»^(٢). وعليه الإقلاع عن الذنب فوراً، وعليه ان يندم على ما فات من لحظات عصي الله فيها وأن يؤنب نفسه ويذكرها بسوء ما فعل حتى تتربى النفس على النظر الى المعصية كحالة قبيحة تزكم الأنوف من شدة نتانتها وقبحها وان لا ينسى ذنبه فينسى الاستغفار والتوبة، يقول الامام الباقر عليه السلام: «إن المؤمن ليدنب الذنب فيذكره بعد عشرين سنة فيستغفر منه فيغفر له، وإنما ذكره ليغفر له، وإن الكافر ليدنب الذنب فينساه من ساعته»^(٣).

ثم على التائب الإكثار من الاستغفار، يقول الامام الصادق عليه السلام: «إذا أكثر العبد من الاستغفار رفعت صحيفته وهي تتلأأ»^(٤). وقد

(١) سورة آل عمران: ٩٠

(٢) وسائل الشيعة: ١٧٦/٧.

(٣) وسائل الشيعة: ١٧٧/٧.

(٤) وسائل الشيعة: ١٧٦/٧.

منَّ الله تعالى على عباده بأن أعطاهم ما يعالجون به أخطاءهم وسوء تصرفاتهم وعصيائهم لأوامر مولاهم ، فتعطف عليهم بقبول الدعاء فقال عزَّ من قائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)؛ والدعاء وسيلة مهمة للتقرب من الله العزيز الجبار ، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٢). ومنحنا من لطفه سبحانه وتعالى الاستغفار وقبل بمنه هذا الرجاء من عباده فقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(٣).

وأعطينا التوبة وهي الضمانة للمغفرة اذا جاءت بشروطها ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤). ومن أعطي كل ذلك وجب عليه شكر المنعم الذي منَّ علينا بهذه النعم الكبيرة فقال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٥).

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) سورة الفرقان: ٧٧.

(٣) سورة نوح: ١٠.

(٤) سورة النساء: ١٧.

(٥) سورة النمل: ٤٠.

وإنما تعلمنا ذلك من إمامنا الصادق عليه السلام، الذي قال: «من أُعطي أربعاً لم يجرم أربعاً: من أُعطي الدعاء لم يجرم الإجابة، ومن أُعطي الاستغفار لم يجرم المغفرة، ومن أُعطي التوبة لم يجرم القبول منه، ومن أُعطي الشكر لم يجرم الزيادة، وذلك في كتاب الله عز وجل»^(١).

ومن شروط التوبة إرجاع حقوق من ظلمهم ، أو طلب البراءة منهم ، وعلى الإنسان المؤمن ان يستثمر وجوده في الحياة لإعادة الحقوق التي أخذها وفيها شبهة أو علم بأن لا حق له فيها قبل الموت وفوات الأوان؛ فأن يوم القيامة يوم تعاد به الحقوق ، ويكون المشتكى فيه جهرةً أمام الله تعالى وجميع الخلق، وسيعطي الله تعالى كل إنسان حقه ، ويرجع حقوق المظلومين من الظالمين، وتتكشف كل الحقائق التي كانت مخفية على الآخرين.. فإنه بحق: يوم الحق، وبكل ما تحمل الكلمة من معنى. وإذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقة يوم القيامة) فسيتحرك بدافع قوي نحو الله عزّ وجلّ للحصول على رضوانه سبحانه بامثال أوامره تعالى..

وهناك شروط أخرى لقبول التوبة منها: أن يكون ترك الذنب لله تعالى لا لشيء آخر وندماً على فعل المعصية ، فليس عدم القدرة على

(١) وسائل الشيعة: ٨ / ١٧٦.

فعل المحرّم أو على معاودته لعجز أو مرض أو غير ذلك من الأسباب، أو الخوف من كلام الناس مثلاً تسمى توبة فهذا الترك للمحرّم ليس خالصاً لله تعالى. ولا يسمى تائباً من ترك الذنوب لأنها تؤثر على جاهه وسمعته بين الناس أو غير ذلك من الأسباب الدنيوية ، لحفظ صحته وقوته ، كمن ترك الخمر أو الفاحشة خشية الأمراض الفتاكة المعدية أو لإفلاسه أو غيرها من الأسباب.

الخاتمة

إذا أذنب المرء عليه أن يتوب بلا ملاحظة وتأخير، وعليه ان يتعبد بهذه التوبة فالتوبة هبة عظيمة من الله تعالى بها علينا بها، وكان الرسول الاكرم ﷺ يتعبد بهذه التوبة، رُوي عن أبي عبد الله الامام الصادق عليه السلام في حديث، قال: «أن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب»^(١). وكذلك الأئمة المعصومون عليهم السلام بلا أي ذنب، حباً وتمسكاً بهذا النوع من العبادة المحببة عند الباري تبارك وتعالى، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(٢). أما الذين لم يختاروا الهداية ورفضوا الإنصياح والتسليم والتوبة، فإن الله لا يهديهم، يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣). فمن أخطأ فليلجأ الى بارئه ومن اذنب فليتب من ذنبه

(١) وسائل الشيعة: ١٦ / ٨٦.

(٢) سورة محمد ﷺ: ١٧.

(٣) سورة الجاثية: ٢٣.

وليندم وليعمل صالحاً.

وأنتم أيها الجيل الذي فيه أمل الإصلاح في المجتمع لجعل الحياة ابهى وأفضل، أيها الشباب الواعي الذي تربي على حب النبي الكريم والعترة المطهرة (صلوات الله سلامه عليهم)، قوا تمسككم بحبل الهداية وابتعدوا ما استطعتم عن طريق الآثام وارتكاب المحرمات، فإن تورط العبد وخرج من جادة النجاة بارتكاب ذنب ما، عليه المسارعة إلى العودة مهتدياً بالتوبة والاستغفار الذي فيه رضا الله ورضا رسوله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وفي ختام بحثنا نروي هذه الرواية التي تختزل كل القول بعبئها النورانية عن أبي عبد الله الامام الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه وكان من قرنه إلى قدمه ذنوباً بد لها الله حسنات: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر»^(١)؛ وقوله عليه السلام: «بد لها الله حسنات» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله رحيماً﴾^(٢).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(١) وسائل الشيعة: ١٢ / ١٦٧.

(٢) سورة الفرقان: ٩٦.

قائمة المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. تفسير القمي.....علي بن إبراهيم القمي.
٣. الميزان في تفسير القرآن.....السيد محمد حسين الطباطبائي.
٤. وسائل الشيعة.....الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.
٥. بحار الانوار.....الشيخ محمد باقر المجلسي.
٦. الكافي.....ثقة الاسلام الكليني.
٧. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة.....حبيب الله الخوئي.
٨. نهج البلاغة.....شرح محمد عبده.
٩. الأمل.....شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي.
١٠. منهاج الكرامة في معرفة الامامة.....العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر.

١١. روضة الواعظين..... الشيخ محمد بن الفتال

النيسابوري الشهيد.

١٢. علل الشرايع..... الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين

بن بابويه القمي

المحتويات

٥	تمهيد
٧	الرحمة الإلهية
١٠	فوائد التوبة
١٣	النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام واسطة للمغفرة
١٨	التوبة النصوح
٢١	الحث على التوبة النصوح
٢٣	الإعتراف بالذنب
٢٥	الساعات السبع
٢٧	وقت لا تنفع فيه التوبة
٣٠	الجهاد الأكبر
٣٢	لماذا يُجَلَّد أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة؟

٣٤

الإستغفار حالة إيمانية

٣٧

ماذا بعد التوبة؟

٤١

الخاتمة

٤٣

قائمة المراجع